آراء المعاصرين في مفهوم الإعجاز عند عبد القاهر الجرجاني

د. أيسر محمد فاضل الدبو
جامعة الانبار

المقدمة :

شغلت قضية الاعجاز الفكر العربي مرحلة تاريخية طويلة بحثاً عن حلٍّ يجد القبول في الأوساط الأسلامية وكان للعقيدة دور في انعكاس الحل عند الفرق هذه ، وهو دور يختلف بأختلاف الأعتقاد بالأصول لكل فرقة إسلامية ، ومن هنا كان للمعتزلة موقفهم الخاص وهو يختلف عن الأشاعرة أو الظاهرية ، وهو موقف متباين في تعليل سر الأعجاز[١] .

وبالاعجاز القرآني ولد الاهتمام بعلوم البلاغة (البيان والبديع والمعاني) فالبحث في إعجازه جعل المشتغلين به مهتمين بوسائله ((ولذلك نتمكن أن نقول أن الدراسات القرآنية سواء كانت هذه الدراسات تتناول تفسير القرآن ، أو معرفة غريبه ... وكل هذه الدراسات كانت سبباً في بحث علوم البلاغة وتطور هذه الدراسة والعناية به وإظهارها الى عالم الوجود)) [٢] . فالبلاغة وسيلة من وسائل الاعجاز به بدأت ومن خلاله تطورت .

ودارت دراسات حول عبد القاهر الجرجاني بوصفه دارس الإعجاز أولاً ثم لفكرة الأشعري الذي تعامل من خلاله مع الإعجاز ثانياً غاية منهم - المعاصرون - في الوصول الى الصورة التي تعامل بها الجرجاني مع الإعجاز وهي صورة (النظم) . ومن هنا كان من الضروري إلقاء نظرة حول الاعجاز بين المعتزلة والأشاعرة يتضح الأثر الذي أحدثه المعتقد سواء كان معتزلياً أو أشعرياً في تحريك فكرة الاعجاز التي أخذت طوراً جديداً بتسرب الأفكار الفلسفية والكلامية الى المجتمع الإسلامي ... وأصبح السؤال في الساحة الإسلامية يدور حول القران وهل هو مخلوق ؟ وأختلف المسلمون في الإجابة تبعاً لأختلاف منطلقاتهم الفكرية والعقائدية[٣] من (معتزلة وأشاعرة وغيرهم) لتكون هذه النقطة بداية الانقسام بين الفرق الاسلامية ، التي تتجه في معتقدها للتعامل مع النص القرآني وانعكاس ذلك التعامل على بناء آرائها اللغوية . وبناءً على ما مضى ذهب المعتزلة الذين قالوا بنفي الصفات عن الله ، وجعلوا القران (كلام الله) أصواتاً وأنها خلقها وأنشأها من غير بواسطة ، وهذا هو الفرق بين كلام البشر وكلام الله فكلامنا ينسب إلينا لأنه خلق الله بواسطتنا أما القران فهو خلق

الله مباشرة هذه رؤية المعتزلة ، في حين هذب السنة الى أن الصفات كلام الله معتقدين أن الذات واحدة على الرغم من تعدد الصفات وأن الله لم يزل متكلماً إذا شاء والكلام صفة الكمال ، وأكتفوا بالتحذير من إثارة مثل هذه الفتن ... وهم نسبوا اليه صفة الكمال على إعتبار أن القرآن (الكتاب الكريم) كلام الله ، وهذا يفسر تخوف السلف من الإقرار بظاهرة المجاز – وهو ما أنكره عليهم عبد القاهر[٤] – لأنه مناقض للحقيقة (كذب) وحاشا لله بكماله أن يذكر شيئاً من هذا القبيل ... ويتدخل أبو الحسن الأشعري ليتوصل – من خلال الفهم الأشعري للقرآن – الى الوفاق ، فكلام الله كما يرى يطلق على نحوين كما هو الشان بالنسبة للإنسان ، فالإنسان يسمى متكلماً باعتبارين : أحدهما الصوت والآخر : كلام النفس الذي ليس بصوت ولا حرف ، وهو المعنى القائم بالنفس الذي يعبر عنه بالصوت[٥] .. ومن هنا فأنَّ (لله) عز وجل من وجهة نظر الأشاعرة ، كلامين – فيما يتعلق بمسألة خلق القرآن – وهما أولاً: ((... الكلام النفسي هو القائم بذاته وهو الأزلي القديم ، وهو الذي لا يتغير بتغير العبارات، وهذا هو المقصود بكلام الله القديم ، وثانياً القرآن بمعنى (الكلام اللفظي) فهو الحادث المخلوق ، وتسمية كلام الله نوع من المجاز ...)) [٦] . وهذا ما يبدو من كلام الباقلاني ((أن الكلام الحقيقي هو المعنى الموجود في النفس لكن جعل عليه إمارات تدل عليه ، فتارةً تكون كلاماً بلسان على حكم أهل ذلك اللسان وما أصطلحوا عليه وجرى به وجعل لغةً لهم ...)) [٧] وهو ما عاد تأكيده مراراً وفي مناسبات مختلفة ((وقد وهمتم علينا في قولكم إنا لم نعقل كلاماً إلا حروفاً وأصواتاً ، لأننا لم نعقل قط ذلك ، لأن الكلام فيما بيننا إنما هو معنى قائم بالنفس يعبر عنه بهذه الأصوات المسموعة تارةً وبغيرها أخرى ، وتقول العرب في نفسي كلام أريد أن أبديه لك ...)) [٨] .

وتأسيساً على هذا جاءت نظرية النظم عند عبد القاهر لتوافق موقفه الأشعري الذي يتسم بمصطلح (الصورة) وهي إنعكاس لحالتين منصهرتين يمثلهما اللفظ والمعنى القائم في النفس، وهو ما يترتب عليه أن يكون ((المستوى المعنوي التصويري الدلالي هو المستوى المحرك للنظم وأن الألفاظ والتفكير فيها إنطلاقاً من حركة هذا المستوى ...)) [٩] ، ويبرهن عبد القاهر على هذا بقوله أن الكلم ((ترتيب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس)) [١٠] وأشار الدكتور منير سلطان – الى هذا – قائلاً : ((إن جانب المعنى القائم بالنفس نظرية أشعرية كان لها نصيب كبير في نظرية النظم عند الجرجاني ، بجانب بحوثه في الجمال والتذوق وصلة المنطق باللغة والنحو)) [١١] وهذا لا يغادر أيضاً ما أوجزه بوضوح الدكتور أبو زيد عندما قال ((...لقد كان للخلاف بين المعتزلة والأشاعرة في مسألة كلام الله وقدم القران وحدوثه أثر كبير في تحديد مفهوم (النظم) فالمعتزلة يقولون: أن الكلام حروف مقطعة وأصوات منظومة ، وهو فعل المتكلم، ولما مهدوا هذا الأساس قاسوا عليه كلام الله فأدى بهم هذا القياس الى الأعتقاد بأنه مخلوق محدث، وهذا الأعتقاد هو الذي حدد وجهة نظرهم في إعجاز القرآن، فصاغوا نظرية النظم في صورة متوافقة مع هذا الأصل ...)) [١٢] في حين قال الأشاعرة – منسوباً الى شيخهم الأول – ((... أن كلام الله على قسمين : كلام مركب من الحروف

والأصوات ، مخلوق محدث وهو القرآن وكلام نفسي لم يزل مع الله تعالى،وهو جوهر واحد لا تركيب فيه وهذا الكلام هو كلام الله القديم الذي يتصف بالأعجاز ، وقد أثر هذا الأعتقاد في نظريتهم الى إعجاز القرآن، فقالوا أن المزية ليست في الجانب المادي من الكلام، ليست في هذه الحروف المركبة والأصوات المنظومة ، ليست في نظم الألفاظ ، وإنما في نظم المعاني)) (١٣) .

إذن فالموقف من إعجاز القرآن وليد المعتقد الفكري الذي يخيم على عقل الإنسان ومن هنا تباين النظم بين (نظم للكلم) عند الأشاعرة ونظم ٠للكلمة) عند المعتزلة .. ويجر الكلام عن النظم عند المعتزلة والأشاعرة الى السبب الذي جعل الجرجاني يرفض ارتباط الاعجاز بالفصاحة – كواحدٍ من الأشاعرة – ويدافع عن فكرته ذلك الدفاع ليثبت أن مكان الاعجاز هو النظم ويجعل من الإيقاع شرطاً جانبياً إزاء أداء المعنى ((... وكذلك الحكم أن زعم أن الوصوف الذي يحدد اليه هو أن يأتوا بكلام يجعلون له مقاطع وفواصل ، كالذي تراه في القرآن ، لأنه أيضاً ليس أكثر من التعويل على مراعاة الوزن وأنها الفواصل في الآي كالقوافي في الشعر ...)) (١٤) .

ويقول في موضع آخر ((.. ان الفصاحة لا تظهر في إضداد الكلمات وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة))(١٥). ويؤكد الدكتور عبد العزيز عبد المعطي العرفة ذلك من خلال قوله((وترى الشيخ عبد القاهر يؤكد فكرته في النظم ويرفض زعم اللفظيين))(١٦) ويبرهن على قوله بإيراد أمثلة من عبد القاهر (١٧) ويسأل الدكتور محمد علي السلطاني عن طبيعة الإعجاز، وهل هي في الفواصل والأيقاع(١٨) ليجيب من خلال الجرجاني بأنه يرفض جعل الجوانب الشكلية سبباً في الإعجاز(١٩)وهو ما أتفق معه الأستاذ نعيم الحمصي(٢٠) أيضاً.

ويناقش الدكتور منير السلطان – وفي الإطار نفسه – (السجع) بإعتباره واحداً من مولدات الإيقاع فيذهب الدكتور إلى أن الجرجاني ((...لم يصرح برأي واضح في الشجع القرآني، ولكنه ناقشه من جانب المعنى، فهو عنده لا يحسن إلا في نسق مستوٍ منتظم، وأن الجمال البلاغي لا يرد اليه في ذاته، كما لا يرد الى مجرد السهولة الظاهرة في الألفاظ والسلامة مما يسهل على اللسان...))(٢١)، فالجرجاني يجعل الإعجاز مجموعاً تكاتف فيه سلامة الالفاظ وخفتها مع معناها المتوخى من النحو(٢٢) .

ومن هنا يمكن القول أن عبد القاهر يرفض أن يجعل الأعجاز في الفاصلة أو الإيقاع والمفردة الفصيحة وإنما يتاتى ذلك من اجتماعها معاً في سياق توخيه معاني النحو حتى يتولد النظم ، وفعلاً فكيف يمكن من كلمة هي ثقيلة في تآلف حروفها تصنع نظماً يؤثر على الآخرين (المتلقين) ، ولكن بالتأكيد أن هذه الأمور كلها تصب في خدمة (النظم) .

ويجعل الدكتور أحمد احمد بدوي – متفقاً مع سابقيه – (الإعجاز) مقتصراً على البلاغة من خلال النظم ، قائلاً : ((ووجه ـ الأعجاز عند عبد القاهر ببلاغته فحسب ، وتكمن هذه البلاغة في نظم القرآن على هذا الإسلوب الذي نزل به لا في الفاظه منفردة عن هذا النظم الذي جاء فيه ، ولا في أن عبارة القرآن قد صارت على ضرب من الوزن يعجز الخلق عن أن يأتوا بمثله...))[٢٣] وهذا لا يخالف ما أجمله الدكتور أحمد مطلوب ، وهو أن الجرجاني ((فسر فكرة الاعجاز تفسيراً يقوم على النظم))[٢٤] ، وهو ما قصده الدكتور عبد الكريم المجاهد عندما ردد أنه ((... في البحث عن إعجاز القرآن كتب لنظرية إئتلاف اللفظ والمعنى الغلبة ، وذلك على يد عبد القاهر الجرجاني الذي طورها ودفعها الى الإمام حتى وصلت منتهاها في نظرية النظم ...))[٢٥] . وهو أيضاً ما قاله الدكتور عبد الكريم الخطيب[٢٦] وتابعه آخرون[٢٧] ... ، فعبد القاهر يرفض الاعجاز بالوزن ((فأن دعا بعض الناس طول الألف لما سمع من أن الأعجاز في اللفظ ، إلا أن يجعله في مجرد الوزن ، كان قد دخل في أمر شنيع وهو أنه يكون قد جعل القرآن معجزاً لا من حيث هو كلام ولا بما به كان لكلام فضل على كلام ، فليس بالوزن ما كان الكلام كلاماً ولا به كان كلام خيراً من كلام ...))[٢٨] ليجعله عملية مؤالفة بين اللفظ والمعنى[٢٩] .

فالنظم إذن يعد أساس الاعجاز في معتقد الجرجاني وكان عليه أن يبين آلية العمل لهذه النظرية ولم يكن أمامه إلا الشعر – ليكون المنفذ للدخول الى الإعجاز – بإعتباره أعلى قمة بيانية عند العرب ، وقد بدأ عبد القاهر رحلته مع الشعر – وسيلة للإعجاز – محاولاً تشذيبه من الرذائل والأفكار الدنيئة التي لصقت في أذهان بعض من الناس[٣٠] وبرهن الدكتور عرفة على ذلك بقوله : ((...يذكر الشيخ عبد القاهر الذي هو أصل المزايا يستطيعوا أن يقفوا على مزايا النظم قد ساء أعتقادهم في الشعر الذي هو أصل المزايا وعليه المعول فيها ، وخيل اليهم أنه ليس فيه كثير طائل ، وأنه ليس غلا ملحة وفكاهة ...))[٣١] .

وفكرة جعل الشعر وسيلة للدفاع عن الإعجاز أكدها الدكتور السلطاني ، الذي يقول ((وهكذا أجهد عبد القاهر وهو يفند مزاعم الطاعنين على الشعر ، في إدراك واعٍ لمخاطر إهماله ، في البعد عن الأساليب العربية الرفيعة ، التي تعد طريقاً لتلمس إعجاز القرآن، جاعلاً دفاعه في إتجاهين أثنين: أحدهما في إزالة ما علق في الأذهان من إعتقادات بفساد الشعر وأزورار الدين عنه وثانيهما بيان أهمية فهم الشعر وتذوقه ، في إدراك إعجاز القرآن))[٣٢] .

ولم يكن الشعر هو الوحيد في الوصول الى نظريته ، بل كان للنحو الدور الكبير في بنائها ، ولذلك كان دفاعه عن النحو بإعتباره المساند في عملية (فلسفة الكلام) وبلورته في إنتاج الخلق الفني المؤثر على المتلقي[٣٣] وهو ما عبر عنه الجرجاني بعد دفاعه عن الشعر بقوله : ((... وأما زهدهم في النحو ، وأحتقارهم له ، واضغارهم أمره وتهاونهم به : فصنيعتهم في ذلك ، أشنع من صنيعتهم

في الذي تقدم ...)) [٣٤] وقوله : ((وأما أن تعلموا أنكم قد أخطأتم حين أصغرتم أمر هذا العلم وظننتم ما ظننتم به ، فترجعوا الى الحق وتسلموا الفضل لأهله...))[٣٥]. إن تهويل عبد القاهر لموقف النحاة والطريقة التي تعاملوا بها مع النحو يقلل من الجهد المبذول في بناء (فلسفة النحو) وهو ما عالجه عبد القاهر في نظرته الى النحو مبتعداً عن أوساط النحاة في حصر الأهتمام بالحركات الإعرابية من نصب أو جرٍ أو رفعٍ، إذ هو يدعو الى أن يكون ((... الفكر لا يتعلق بمعاني الكلم المفردة مجردة من معاني النحو ومنطوقاتها على وجه لا يتأتى معه تقديره معاني النحو وتوخيها...))[٣٦]، ومن هنا يتضح ان ارتباط النظم بالنحو ارتباط المولود بوالده فالنظم لا يولد إلا من خلال النحو الذي يمثل الإسناد .

أما الشعر فهو يعطي تصوراً لطالب الإعجاز بأن الأختلاف في النظم (الأساليب) هو السبب في تفاوت الإبداع عند الشعراء وهذا عائد الى المقدرة اللغوية والفنية في الأداء ولذا كان الإعجاز في القرآن أكمل مقدرة لغوية وأكثر تأثيراً إنفعالياً على المتلقي (منفعة وجمالاً) .

وتقود قضية الاعجاز وعلاقتها بالنظم مرة أخرى الى مدى إرتباط اللفظ والمعنى بها ، ويرى عبد الكريم الخطيب أن إيمان عبد القاهر بوجود ثنائيتي اللفظ والمعنى ما هو إلا لغرض الوصول الى الهدف وهو القضاء على هذا الإنقسام للوصول من خلاله الى الإعجاز ، يقول : ((... على غن الحق يقتضينا أن ننصف (عبد القاهر) فنقول : إن الرجل لم يذهب هذا المذهب في تقسيم هذا الكلام بين اللفظ والمعنى إلا ليرد على تلك المذاهب الخاطئة التي تهتم بالصياغة، وتحفل بالإسلوب ، دون إقامة وزن للمعنى ، وإلا فأن الرجل ينتهي آخر الأمر بالمزاوجة بين اللفظ والمعنى بل المزج بينهما...)) [٣٧] ويبدو أن الخطيب يخلط هنا بين مصطلحات تعارف النقد عليها وأستقر على دلالتها النقاد والبلاغيون، فالنظم هو الإسلوب وليس (اللفظ) يقول الدكتور محمد عبد المطلب ((... لا ينفصل عبد القاهر الجرجاني عن نظريته في النظم عندما ما يعرض لمفهوم (الإسلوب) بل يكاد يطابق بينهما بوصفهما ممثلين لأمكانية خلق التنوعات اللغوية القائمة على الاختيار الواعي)) [٣٨]، كما أن مفهوم الصياغة يقابل مفهوم النظم، يقول الدكتور أحمد مطلوب ((... أن عبد القاهر في كل ما عرض ليس من أنصار الألفاظ من حيث هي كلم مفردة وليس من أنصار المعاني التي هي أساس كل شيء بغض النظر عن تجانس الألفاظ وتلاحمها ، وإنما هو من أنصار الصياغة من حيث دلالة هذه الصياغة على جلاء الصورة الأدبية ...))[٣٩] .

وبعيداً عن إشكالية المصطلح وقريلاً من علاقة الإعجاز باللفظ والمعنى يسأل الدكتور السلطاني ، هل الإعجاز في الألفاظ[٤٠] ليكون جوابه بالرفض لأن الأعجاز في النظام أو توخي معاني النحو، رافداً ذلك بأمثلة أمده بها الجرجاني[٤١] .

وفي سياق آخر بحث الجرجاني عن الإعجاز ومدى العلاقة التي تربطه بفنون البلاغة ولاسيما البيان ، يقول الدكتور أحمد مطلوب عن موقف الجرجاني من رفضه جعل الأستعارة أن تكون سبباً للإعجاز وذلك لأنها تكون : ((معدودة في مواضع من السور الطوال مخصوصة)) [٤٢] فعبد القاهر حينما يعنى ((بأساليب الأستعارة والكناية والتمثيل وسائرة ضروب المجاز الأخرى في القرآن ، فلأنها من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي افراد ولم يتوخ ، فيما بينها حكم من أحكام النحو ...)) [٤٣] . وهنا يتبادر لدى المتلقي تصور بأن للنحو الدور المهم في إدراك الجو الأنفعالي وتحريكه في الإستعارة ، وهو دور تبرز أهميته مثلاً لو أعيد النص القرءني في قوله تعالى ((وأشتعل الرأس شيباً)) [٤٤] ، إذ أن الأصل في الشيب أن يكون (فاعلاً) وجاء الأنزياح هنا لتجسيد صورة الضرر الأكثر إيلاماً وذلك بجعل الشيب تميزاً لأن التميز هنا يفيد العموم والأنتشار في تصوير الضرر [٤٥] ، ويتفق الدكتور السلطاني مع الدكتور مطلوب شافعاً هذا الأتفاق بنصوص الجرجاني نفسها [٤٦] ... وتابعه آخرون [٤٧] على ذلك، بعد أن اتضح موقف عبد القاهر من الأعجاز يطرح الآن سؤالان :

الأول : يتعلق بموقف الإعجاز عند الجرجاني والجاحظ ومدى التقائهما .

والثاني : هل قال الجرجاني كل ما لديه من الإعجاز ؟

والجواب عمّا يخص الأتجاه الأول وهو العلاقة التي جمعت الجرجاني والجاحظ تحت مظلة الإعجاز ، فقد اختلف الباحثون في هذا ، فبينما ينفي الدكتور مندور الأعتراف بهذه العلاقة من خلال فهمه ان الجاحظ أعتنى باللفظ قائلاً: ((.. ينكر عبد القاهر كما رأينا كل مزية في اللفظ، وهو في ذلك يناقض آراء الجاحظ في الفصاحة، ولكن هذا في الحق إنكار مسرف لا نقره، ونحن لا ندّعي لرجلنا العصمة ولا نضرب دائماً بعصاه، والذي لا شك فيه أن لجرس الألفاظ كما قلنا وقعاً إيجابياً فكثيراً ما يعين الكاتب أو الشاعر على إستنفاد إحساسه)) [٤٨] يخفف الدكتور شوقي ضيف من ذلك مؤكداً أن الجرجاني أدخل ((في اللفظ الصورة البيانية ، ومن هذه المزايا المتصلة بفصاحة اللفظ وعذوبته وسلاسته وسهولة مخارجه في النطق ...)) [٤٩] وهذا فعلاً ما أكده الجرجاني بقوله :

((وأعلم إننا لا نأبى أن تكون مذاقه الحروف وملاءمتها ما يثقل على اللسان داخلاً فيما يوجب الفضيلة وأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز وإنما الذي ننكره ونفيل اليه رأي من يذهب اليه أن يجعله معجزاً به وحده ويجعله الأصل والعمدة)) [٥٠] .

فعبد القاهر لم ينكر اللفظ تماماً كما ذهب الدكتور مندور بل أشار الى اهميته ولكن لا يجعل الإعجاز به كما فعل المعتزلة لأنهم- كما يرى - ((لهجوا بالأباطيل في أمر اللفظ ، أنهم قوم قد أسلموا أنفسهم الى التخيل، والقوا مقادتهم الى الأوهام حتى عدلت بهم عن الصواب كل معدل وجعلتهم

يرتكبون في نصرة رأيهم الفاسد القول بكلّ محال...))[٥١]، ولكن يبقى للفظ دوره – عند الجرجاني- الذي يسمح القول بوجود هذه العلاقة (اللفظ والمعنى) ، الأمر الذي اكده الدكتور أحمد مطلوب قائلاً : ((إن عبد القاهر المؤمن بنظرية النظم وتوخي معاني النحو لا يمكن ان يميل الى الألفاظ كل الميل فيجعلها أساساً للمفاضلة، ولا يمكن أن يجنح الى المعنى الخالي من كل مزية وأن كان هو الذي يخطر في الذهن ثم يتبعه اللفظ ، ولذلك مال الى ما أشار اليه الجاحظ وهو الصياغة والتصوير بين اللفظ والمعنى ويجمع بينهما بعد أن رأى جماعة تسرف في تقدير اللفظ وأخرى تسرف في تقدير المعنى ...)) [٥٢] . إذن علاقة عبد القاهر بالجاحظ علاقة ليست بعيدة وهي مقرورة، فالجاحظ يؤكد ((أن أعجاز القران في نظمه...))[٥٣]، وهذا دليل على وجود مثل هذه العلاقة ، ولذا عاد الدكتور أحمد مطلوب مصرحاً بتأثير الجاحظ على عبد القاهر في نظريته : ((وتأثر بالجاحظ (٢٥٥ هـ) في نظرية النظم الذي توسع فيها وبني عليها رأيه في إعجاز القرآن واللفظ والمعنى والتعبير الاعتيادي والمزخرف ونقل كثيراً من أقواله وآرائه ووافقه فيها ورد عليها في بعضها ...)) [٥٤] . وأشار الدكتور السلطاني الى مثل هذه العلاقة شارحاً ذلك بالتفصيل[٥٥] . أما الأتجاه الثاني : وهو هل قال الجرجاني كل ما لديه من الإعجاز ؟ الجواب (لا) ويبرهن الدكتور احمد احمد بدوي بقوله إن عبد القاهر ترك ((للقارىء تطبيق فكرته على القران ، بعد أن يهضمها ويؤمن بها ، ليصل الى إعجازه بنفسه، بعد أن وضع عبد القاهر له الأساس الصالح الذي يبني عليه))[٥٦]. ويتفق الدكتور عبد القادر حسين مع الدكتور بأن المشروع الجرجاني غير مكتمل في الإعجاز ولكن يبدو أنه يعلل سبب ذلك بأتجاه آخر قائلاً ((... فعلى الرغم من أن الدافع الى وضع هذه النظرية عند عبد القاهر كان دينياً بحتاً، وغرضه خدمة الدين والعقيدة ، إلا أن هذا الهدف لم يتحقق ، فمن يقرأ الدلائل يشعر، بمدى سيطرة الباحث النحوية والبلاغية على بيان الإعجاز في القرآن، مما يدل على أن عبد القاهر قد نسي الغرض الذي ألف الكتاب من أجله ، أو أنحرف عن الطريق المرسوم ، وربما كان هذا هو السبب في إن عبد القاهر قد تسرع في تصنيف رسالة جديدة ليستدرك ما قاله في الدلائل ...))[٥٧] ، ولكن أيمكن لإنسان أن يبني بيتاً من غير أن يهيىء مواد البناء ؟ بطبيعة الحال إن ذلك مناف للواقع ، وكذلك فعل عبد القاهر إذ جاء بوسائل الإعجاز من نحو وبلاغة وتآلف الفاظ وغيرها من المواد التي تجعل القارىء يكتشف الإعجاز من خلال النظم ، فبهذه الوسائل يتحقق الطريق الى الإعجاز عنده ، ولو وقف الدكتور مع عبد القاهر وتحديداً في نهاية كتابه ((الدلائل) لأتضح له ما أنتهى اليه عبد القاهر[٥٨] .

لقد وضع عبد القاهر في (دلائل الإعجاز) العلامات والوسائل التي يصل بها طالب الإعجاز الى فهمه ، وهذه الوسائل توزعت بين الدلائل وهي القسم الذي يتعلق بالمعاني والباقي في الأسرار وهي تتعلق بالجانب التصويري ، ولكن لا يغادر هذا الجانب (التصويري) حدود النحو فهو الذي يتدخل أحياناً في تحديد الجوانب الفنية والجمالية ، أما فيما يتعلق بالرسالة الشافية فهي لا تغادر إجمالاً تلك

الوسائل مع نظرته التحليلية في بيان إعجاز القرآن (بالنظم) ، يقول : ((وهذه جمل من القول في بيان عجز العرب ، وحين تحدوا الى معارضة القرآن ، وإذعانهم وعلمهم أن الذي سمعوه فائق للقوى البشرية ... وفيما يتصل بذلك مما له أختصاص بعلم أحوال الشعراء والبلغاء ومراتبهم)) (٥٩) .

فعبد القاهر بعد أن وضحّ النظم في الدلائل وختم ذلك(٦٠) عاد في الأسرار ليقرر هذا مع علم البيان مبيناً أن أسراره مبنية من خلال (النظم) قائلاً : ((... والألفاظ لا تقيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف ، ويعمد بها الى وجه دون وجه من التركيب والترتيب ...)) (٦١) وهذا ما تغادره الرسالة أيضاً(٦٢) .

ولكن أين التطبيق لهذه النظرية في النص القرآني ؟ بالتأكيد أن القارىء هو المعول على هذا كما قال الدكتور أحمد احمد بدوي ، فهو بعد أن يستوعب الوسائل التي يتوصل بها الى الإعجاز يفقه السر الذي جعل القرآن معجزاً بل يقيس ويعلل ذلك على أساس النظم .

إذن لا حجة للدكتور عبد القادر حسين في إن عبد القاهر أنحرف عن هدفه لأن كتبه ، تفرض أن الجرجاني كان أزاء وضع وسائل للوصول الى هدف لم يكتمل ذكره لأن يد المنون كانت قد خطفته قبل أن يقول كل ما لديه ، ويؤكد الدكتور محمد بركات أبو علي ذلك عندما قال ((... أنه ما أراد عبد القاهر أن يكتب في التفسير البياني للقران ، وإنما أراد أن يقدم نموذجاً لفهم التفسير البياني من خلال النموذج، ولهذا فقد أكمل النظرة التطبيقية لمنهج عبد القاهر البلاغي- في القرآن الكريم- الزمخشري (٥٣٨ هـ) في كتابه (الكشاف)))(٦٣)، وهذا ما أكده أيضاً الدكتور أحمد علي الدهمان - على الرغم من إعتراضه - قائلاً ((... نعم لقد عني عبد القاهر في الدلائل بقضية الإعجاز إلا أنه لم يشر صراحة الى دلائل الإعجاز القرآني ، فقد ترك للقارىء إستمدادها من خلال عرضه المطول ...)) (٦٤) .

ولابد من الأشارة أن أعتراض الدكتور الدهمان غير مقبول لأن عبد القاهر وضع وسيلة لفهم البيان القرآني كما أكده الدكتور محمد بركات ... تاركاً للقارىء حرية التطبيق وهذا ما فهمه الزمخشري وطبقه في تفسيره ، وأخذ به يحيى بن حمزة العلوي في كتابه (الطراز) (٦٥) .

فنظرة عبد القاهر في الإعجاز لا تبرح مكان النظم الذي يأخذ النحو المدى الواسع منه ... وهذا رأيه في الإعجاز ، وهو ما تبناه الفهم المعاصر .

الهوامش :

١. ينظر : المنحى الأعتزالي في البيان وإعجاز القران : أحمد ابو زيد / ٢٨٢ وما بعدها .

٢. تطور دراسات إعجاز القران وأثرها في البلاغة العربية : د. عمر الملاحويش / ٣٤١ .

٣. قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني : د. محمد عبد المطلب / ٢٩ .

٤. أسرار البلاغة / ٢١٩ .

٥. ينظر: قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني: د.محمد عبد المطلب:٢٩، وينظر : عبد القاهر الجرجاني بلاغه ونقده : د. احمد مطلوب / ٢٤٨ .

٦. قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني : د. محمد عبد المطلب : ٣٠.

٧. الإنصاف في ما يجب أعتقاده ولا يجوز الجهل به: الباقلاني :٩٤ تحقيق: محمد زاهد الكوثري.

٨. التمهيد : الباقلاني / ٢٥١ ، تصحيح : الأب رتشرد يوسف اليسوعي .

٩. اللفظ والمعنى بين الأيدلوجيا والتأسيس المعرفي للعلم : طارق النعمان / ٣٠٩ .

١٠. دلائل الاعجاز في علم المعاني : عبد القاهر الجرجاني : ١٠٦ وينظر : ١٠٢و١٠٣و١٠٤ شكله وقدم له : د. ياسين الأيوبي .

١١. إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة : د. منير سلطان / ٢٢٥ .

١٢. المنحى الأعتزالي في البيان وإعجاز القران : أحمد أبو زيد / ٢٩٣ ، وينظر : التفكير الدلالي عند المعتزلة : د. علي حاتم الحسن : ٥٩ .

١٣. المنحى الأعتزالي في البيان وإعجاز القران : أحمد أبو زيد : ٢٩٣ .

١٤. الدلائل : ٣٧١ .

١٥. المصدر نفسه : ٣٧٥ .

١٦. تربية الذوق البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني ، د. عبد العزيز عبد المعطي عرفه / ٣١٩ .

١٧. ينظر : المصدر نفسه / ٣١٩-٣٢١ .

١٨. مع البلاغة العربية في تاريخها وتطورها : ١٦٨ .

١٩. ينظر : المصدر نفسه / ١٦٨ .

٢٠. فكرة اعجاز القران (منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق): نعيم الحمصي/ ٨٧ .

٢١. إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة : د. منير سلطان / ٢٢٣ .

٢٢. ينظر : الدلائل : ٤٧٨ .

٢٣. عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية : ٧٩ .

٢٤. عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده : ٢٥٣ .

٢٥. اللفظ والمعنى عند النقاد والبلاغيين : عبد الكريم مجاهد : ٣١ مجلة الأقلام ، ع٩/ سنة ١٦م / ١٩٨١م .

٢٦. ينظر : إعجاز القران (في دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها) : ٢٤٣ .

٢٧. ينظر : فكرة اعجاز القران: نعيم الحمصي: ٨٧ وينظر: إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة: د. منير سلطان : ١٤٣ .

٢٨. الدلائل : ٤٣٢ وينظر : ٤٧٨ و١٠٩ .

٢٩. عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده : د. احمد مطلوب ٢١٧-٢٢٤ .

٣٠. تربية الذوق البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني : ٢٣٤ . وينظر : الدلائل/ ٧٣-٨٦ .

٣١. مع البلاغة العربية : ١٤٩-١٥٠ .

٣٢. ينظر : مع البلاغة العربية : د. محمد علي السلطاني : ١٥٠ .

٣٣. الدلائل : ٨٦-٨٧ .

٣٤. المصدر نفسه : ٩٠ .

٣٥. عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده : ٥٨ وينظر : ٥٩ وينظر : الدلائل : ٣٨٧ .

٣٦. إعجاز القران في دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية : ٢٤٧ .

٣٧. قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني : د. محمد عبد المطلب / ٤٣ .

٣٨. عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده : ١١٥ .

٣٩. ينظر : مع البلاغة العربية في تاريخها وتطورها : ١٥٣ .

٤٠. ينظر : المصدر نفسه : ١٥٤ وما بعدها .

٤١. عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده : د. احمد مطلوب / ٢٦٠ .

٤٢. عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده : د. احمد مطلوب : ٢٦٠ .

٤٣. مريم / ٤ .

٤٤. ينظر : الدلائل / ١٣٤-١٤٤ .

٤٥. ينظر : مع البلاغة العربية : د. محمد علي السلطاني : ١٦٩-١٧١ .

٤٦. ينظر : فكرة إعجاز القران : نعيم الحمصي / ٨٨ وينظر أيضاً : إعجاز القران بين المعتزلة والأشاعرة : د. منير سلطان / ٢٣٠ .

٤٧. في الميزان الجديد : محمد مندور : ١٩٤ .

٤٨. البلاغة تطور وتاريخ : د. شوقي ضيف / ١٦٦ .

٤٩. الدلائل : ٤٨٠ وينظر : عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده : ١٠٦ .

٥٠. الدلائل : ٣٩٠ .

٥١. عبد القاهر بلاغته ونقده : ١١٨ .

٥٢. الحيوان : الجاحظ ٤/ ٩٠ .

٥٣. عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده : د. احمد مطلوب / ٢٧٤ .

٥٤. ينظر : مع البلاغة العربية في تاريخها : د. محمد علي السلطاني/ ١٩٠-١٩٦ .

٥٥. عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية / ٣٥٢ .

٥٦. أثر المحاة في البحث البلاغي : د. عبد القادر حسين / ٣٥٩ .

٥٧. ينظر : الدلائل / ٤٤١ .

٥٨. الرسالة الشافية ضمن ثلاث رسائل : عبد القاهر / ١٠٧ تحقيق / محمد خلف الله محمد .

٥٩. ينظر : الدلائل / ٤٧٨ .

٦٠. ينظر : أسرار البلاغة / ٤٧٨ .

٦١. ينظر : الرسالة الشافية / ١٤٢ وما بعدها وينظر : معالم المنهج البلاغي : محمد بركات أبو علي / ١٦ .

٦٢. معالم المنهج البلاغي : محمد بركات أبو علي / ٩ .

٦٣. الصورة البلاغية عند عبد القاهر (منهجاً وتطبيقاً) ١/ ٤٦١ .

٦٤. ينظر : عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده : د. احمد مطلوب / ٣٠٩ .

المصادر والمراجع :

١. أسرار البلاغة في علم البيان : الأمام عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : د. محمد اللحام ، دار الفكر العربي ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٩٩٩م .

٢. أثر النحاة في البحث البلاغي : د. عبد القادر حسن ، مطبعة النهضة ، مصر – القاهرة ، ١٩٧٥ .

٣. إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة : د. منير سلطان، منشأة المعارف، الإسكندرية ، ط٣ ، ١٩٨٦ م .

٤. إعجاز القرآن في دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها ، جـ١ وجـ٢: عبد الكريم الخطيب، دار الكتاب العربي، مصر، ط١، ١٩٦٤م.

٥. الإنصاف في ما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به : أبو بكر بن الطيب البصري الباقلاني ، تحقيق : محمد زاهد بن الحسن الكوثري ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٣م .

٦. تربية الذوق البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني : د. عبد العزيز عبد المعطي عرفه ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٣م .

٧. تطور دراسات إعجاز القرآن (وأثرها في البلاغة العربية) : د. عمر الملاحويش، مطبعة الأمة ، بغداد ، ١٣٩٣هـ-١٩٧٢م .

٨. التفكير الدلالي عند المعتزلة : د. علي حاتم الحسن، دار الشؤون الثقافية ، ط٢ ، بغداد ، ٢٠٠٢م .

٩. التمهيد : أبو بكر بن الطيب البصري الباقلاني ، عني بتصحيحه ونشره : الأب رتشرد يوسع مكارثي اليسوعي، المكتبة الشرقية، بيروت، ١٩٥٧م .

١٠. الحيوان : تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ط١ ، القاهرة ، ١٣٥٦هـ -١٩٣٨م .

١١. دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني ، شكله وشرح غامضه ، د. ياسين اليوبي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٠ .

١٢. الرسالة الشافية : ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق : محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، دار المعارض ، مصر ، ١٩٦٨م .

١٣. الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني (منهجاً وتطبيقاً) : د. أحمد علي الهمان، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق - سوريا ، ط١ ، ١٩٨٦م .

١٤. عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده : د. أحمد مطلوب، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط١ ، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م .

١٥. عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية : د. أحمد احمد بدوي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، دار النشر للطباعة ، القاهرى، أعلام العرب (٨) .

١٦. فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق: نعيم الحمصي ، قدم له : محمد بهجة البيطار ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م .

١٧. في الميزان الجديد : د. محمد مندور، دار نهضة مصر، الفجالة - مصر، ١٩٧- البلاغة تطور وتاريخ : د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ .

١٨. قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني : د. محمد عبد المطلب ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان - القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٥م .

١٩. اللفظ والمعنى بين الأيدلوجيا والتأسيس المعرفي للعلم : طارق النعمان ، الفجر للطباعة والنشر - القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٤م .

٢٠. معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني : محمد بركات حمدي أبو علي ، دار الفكر ، عمان - الأردن ، ط١ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م .

٢١. مع البلاغة العربية في تاريخها : د. محمد علي سلطاني (القسم الأول) ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، ط١ ، ١٩٧٨-١٩٧٩م .

٢٢. المنحى الأعتزالي في البيان وإعجاز القرآن : أحمد أبو زيد ، مكتبة المعارف - الرباط ، ط١ ، ١٩٨٦م .